أهل العلم والحكم

في ريف فلسطين

الأستاذ أحمد سامح الخالدي

— ٢ —

أنهارها وبحيراتها

ويصف لنا ياقوت أهم أنهارها وبحيراتها وقد زار بحيرة طبرية مراراً ويكشف لنا عن مشروع ري عظيم يجمع بين نهري الأردن واليرموك فنسق مياههما ضياع النور والبثنية (وهي الناحية الواقعة على الضفة اليسرى من الأردن بمدجريانه من بحيرة طبرية) كما يذكر لنا زراعة قصب السكر في هذه المنطقة وتصدير السكر إلى سائر بلاد الشرق ، ويروي لنا بعض ما قاله الشعراء في هذه الأماكن .

فيقول عن الأردن في (ج ١ — ص ١٨٦) وطبرية على طرف جبل يشرف على هذه البحيرة ، فهذا النهر أعني الأردن الكبير بينه وبين طبرية البحيرة . وأما الأردن الصغير فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية ويمر نحو الجنوب في وسط النور فيسقي ضياع النور . وأكثر مستغلهم السكر ، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الشرق وعليه قرى كثيرة منها بَيْسان ، وقراوا ، وأريحا والسوجاء وغير ذلك .

« وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين ، ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهراً واحداً فيسقي ضياع النور وضياع البثنية ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة (البحر الميت) في طرف النور الغربي (كذا) (الجنوبي) .

وقال أبو دهلب أحد بني ربيعة بن قريع ... بن تميم :

حنّت نوارس أمس بالأردنّ حتى فما ظَلَمتِ أن تحنّى
حنّت بأعلى صوتها الرُّنّ في خَرصير أجشّ مستجنّ
فيه كتهزيم نواحي الشنّ

وقال عدي بن الرقاع العاملي :

لولا الإله وأهل الأردن اقتسمت نار الجماعة يوم الرج نيرانا

قالوا والأردن في لغة العرب الغياض . قال أبان الزيدي :

وقد ملتني نعسة الأردن وموهبٌ مُبرٍ بها مُسمن

والظاهر أن الأردن الشدة والغابة ، فإنه لا معنى لقوله (وقد ملتني نعسة الأردن) .

وقال النمري يمدح بدر بن عمار وكان قد ولي ثغور الأردن والساحل من قبل أبي بكر محمد بن رائق :

تهنا بصور[1] أم تهنأها بكا وقل الذي صور وأنت له لكا
وما صغر الأردن والساحل الذي حبيت به إلا إلى جنب قد ركا
تحاسدت البلدان حتى لو أنها نفوس لسار الشرق والغرب نحوكا
وأصبح مصر لا تكون أميره ولو أنه ذو مقلة وفم بكا

وحدث اليزيدي قال خرجنا مع المأمون في خرجته إلى بلاد الروم فرأيت جارية عربية في هودج ، فلما رأتني قالت يا يزيدي أتنشدني شعراً قلته حتى أصنع فيه لحناً فانشدت :

ما فا بقلبي من دوام الخفق إذا رأيت لسان البرق
من أقبل الأردن أو دمشق لأن من أهوى بذاك الأفق
ذاك الذي يملك مني رقّي ولست أبغي ما حييت عتقي

قال فتنفست تنفساً ظننت أن ضلوعها قد تقصفت منه ، فقلت هذا والله تنفس عاشق . فقالت اسكت ويلك أنا أعشق والله ، لقد نظرت نظرة مريبة فأدعاها من أهل المجلس عشرون رأساً ظريفاً (معجم ياقوت[2] ج ١ — ١٨٥) .

وجاء في شذرات الذهب (ج ٦ — ٢٧٣) في حوادث سنة ٧٨٢ هـ أن برقوق أمر ببناء جسر الشريعة (الأردن) بطريق الشام وجاء طوله مئة وعشرين ذراعاً وانتفع الناس به . وفي الشذرات أيضاً (٧ — ص ٧) لما بنى الجسر قال فيه شمس الدين محمد الزين .

بنى سلطاننا للناس جسراً بأمر والوجوه له مطيعه
مجازاً في الحقيقة للبرايا وأمراً بالسلوك على الشريعة

وفي رواية أخرى بنى سلطاننا برقوق ، والأنام بدل الوجوه

(١) كانت صور إحدى ثغور جند الأردن .
(٢) توفي ياقوت (٦٢٦ هـ) .

والمرور بدل السلوك .

وعلى الأردن خمسة جسور هي من الشمال إلى الجنوب : جسر بنات يعقوب ، وجسر الحامع ، وجسر الشيخ حسين ، وجسر اللنبي ، وهو الذي يوصل طريق القدس بعمان ، وله أكثر من مخاضة يسلكها العرب في غدواتهم .

* * *

أما بحيراتها ، فقد جاء ذكر الحولة ، بأنها كورة بين بانياس وصور وأنها أي ناحية الحولة ذات قرى كثيرة من إحداها كان الحارث الكذاب الذي ادعى النبوة أيام عبد الملك بن مروان وكان هذا من أهل دمشق وكان له أب بالحولة[1] (معجم البلدان ٣ — ٣٦٨) .

ويقول عن بحيرة طبرية أنه رآها مراراً وهي كالبركة يحيط بها الجبل ويصب فيها فضلات أنهر كثيرة تجيء من جهة بانياس ويتصل فيها نهر عظيم فيشق أرض الأردن الأصغر وهو بلاد الغور ويصب في البحيرة المنتنة (البحر الميت) قرب أريحا . ومدينة طبرية في سفح الجبل مشرفة على البحيرة ماؤها عذب شروبه ليس بصادق الحلاوة نقيل ، وإياها أراد النبي يصف الأحمد

أمنعر الليث العزيز بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا
وقفت على الأردن منه بلية ... نضدت لها هام الرقاق تلولا
وردٌ إذا ورد البحيرة شاربا ... ورد الفرات زئيره والنيلا

(راجع معجم ياقوت ج ٢ — ٨٠) .

أما عن البحر الميت ، أو بحر لوط ، أو زُغر[2] كما يسميها فيقول أن زغر اسم بنت لوط ، نزلت بهذه القرية فسميت بها . قال حاتم الطائي :

سقى الضرب الناس سحاً وديمة ... جنوب السراة من مآب إلى زُغر
بلاد امرىء لا يعرف الشم بيته ... له الشرب الصافي ولا يطعم الكدر

وقد جاء ذكرها في حديث الجساسة ، وهذه في واد وخم ردىء في أشام بقعة ، إنما يسكنه أهله لأجل الوطن وقد يهيج فيهم في بعض الأعوام مرض فيفني كل من فيه أو أكثرهم (معجم البلدان ٤ — ٣٩٣) والأرجح أن المرض الذي يشير إليه ياقوت إنما هو الملاريا .

أما عن الأنهر الصغيرة فيذكر نهر أبي فطرس أو نهر فيطرس (الدوجا ، وهو تحريف كلمة انتيباتريس Antipatris وهي المدينة التي ينبع هذا النهر بالقرب منها .) فيقول ياقوت ، موضع قرب الرملة من أرض فلسطين مخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس ويصب في البحر الملح (البحر المتوسط) بين يدي مدينتي أرسوف ويافا وبه كانت وقعة عبد الله بن العباس مع بني أمية فقتلهم في سنة ١٣٢ هـ ، وهي السنة التي زال فيها ملك الأمويين وقامت فيه دولة بني العباس .

قال ابراهيم مولى قائد المهلبي يرثيهم .

أفاض المدامع فتكى كدا ... وقتل بكثرة لم تُرمَ سر
وقتلى بوجٍ وباللابتين ... يثربَ هم خيرُ ما أنفس
وبالنابيين نفوس ثوت ... وأخرى بنهر أبي فطرس
أولئك قوم أباحت بهم ... نوائب من زمن متمس
إذا ركبوا زينوا الراكبين ... وإن جلسوا زينة المجلس
هم اضرعوني لريب الزمان ... وهم ألصقوا الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس تلاعم ... ولا عاش بعدهم من نسي

قال المهلبي وعلى نهر أبي فطرس أوقع أحمد بن طولون بالمعتضد فهزمه . قلت إنما كانت الوقعة بموضع يقال له الطواحين بين المعتضد وخمارويه بن أحمد بن طولون قال وعليه أخذ العزيز هنتكين التركي . وقلت عساكر الشام عليه . وبالقرب منه أوقع القائد فضل بن صالح بأبي تغلب حمدان فقتله ويقال إنه ما التقى عليه عسكران إلا هزم الغربي منهما .

وقد ذكر أبو نواس في قصيدته في الخصيب نهر فطرس ولم يضفه إلى كبية فقال .

وأصبحن قد فوّزن من نهر فطرس ... وهنّ من البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزّة هاشم ... وبالفرما من حاجهن شهود

وقال المهلبي :

ابكي على فتية وزنتهم ... ما إن لهم في الرجال من خلف
نهر أبي فطرس محلهم ... وصيروا الرابيين للكتف
اشكو من الله ما بليت به ... من فقد تلك الوجوه والشرف

راجع معجم البلدان (٨ ج — ٢٣٣) .

(١) اسم البحيرة واسم الناحية .

(٢) وقد ذكرها باسم البحيرة المنتنة وقال أن رائحتها في غاية النتن لا يتضح بها في شيء .

وقد ذكر ياقوت اليرموك مع الوديان ، فقال أنه واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن . كانت به حرب بين المسلمين والروم أيام أبي بكر الصديق ، وقدم خالد الشام مددا لهم. قال القعقاع بن عمرو يذكر مسير خالد من العراق إلى الشام :

بدأنا بجمع العشرين لم يدع ... لنسان أنثا فوق تلك المناصر
صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر تجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة ... فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا الليث في اليرموك جمع العشائر

ذكر الجبال والوديان والحصون والمواقع :

(أنظر معجم البلدان ٨ ج — ٥٠٤) :

ذكر ياقوت من الجبال ، جبل الجليل في ساحل الشام ممتد إلى قرب حمص . كان معاوية يحبس في موضع منه من يتظنن به ممن يتهم في قتل عثمان . وجبل الجليل بالقرب من دمشق وهو يقبل من الحجاز فما كان بفلسطين منه فهو جبل الجليل ، وما كان بالأردن فهو جبل الجليل ، وهو بدمشق لبنان وبحمص سنير(١) قال أبو القسيس بن الأسلت .

فلولا ربنا كنا يهوداً ... وما دين اليهود بذي شكول
ولولا ربنا كنا نصارى ... مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنا خلقنا إذ خلقنا ... حنيف ديننا عن كل جيل

قال الحافظ الدمشقي واصل بن جبل أبو بكر السلماني من بني سلامان الجليلي من جبل الجليل من أعمال صيدا ، وبيروت ، من ساحل دمشق ، حدث عن مجاهد ومكحول وعطاء وطاووس والحسن البصري وروى عنه الأوزاعي . قال يحيى بن معين ، واصل بن جبل مستقيم الحديث ، ولما هرب الأوزاعي من عبدالله بن علي بن عبد الله بن العباس اختبأ عنده وكان الأوزاعي يحمد ضيافته ويقول ما تهنأت بضيافة أحد مثل ما تهنأت بضيافتي عنده ، وكان خبأني في مرى العدس ، فإذا كان العشاء جاءت الجارية فأخفت من العدس فطبخت ثم جاءتني به فكان لا يتكلف فتهنأت بضيافته . (معجم البلدان ٣ — ١٣١) .

ويصف لنا جبل الطور (طابور) ودير فيقول الطور هو الجبل المشرف ، أما هذا فستدير واسع الأسفل ، مستدير الرأس لا يتسلق به الجبال ، وليس له إلا طريق واحد وهو ما بين طبرية واللجون مشرف على الغور ومرج اللجون (مرج بني عامر) وفيه عين تنبع بماء غزير وكثير ، والدير في نفس القبلة مبني بالحجر وحوله الكروم يعتصرونها فالشراب عندهم كثير . ويشرف أيضاً بدير التجلي ، والناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به ويشربون فيه . موضعه حسن يشرف على طبرية البحيرة وما والاها على اللجون وفيه يقول مهلهل بن غريب المزوع .

نهضت إلى الطور في فتية ... سراع النهوض إلى ما أحب
كدام الجدور حسان الوجوه ... كهول العقول شباب اللعب
انخت الركاب على دوره ... وقضيت من حقه ما يجب

(معجم البلدان ٤ — ٢١٢) :

أحمد سالم الخالدي

الكلام بقية

(١) هو القسم العالي من جبال لبنان الشمالية .

كتاب

الأجوبة المسكتة

على لسان القرآن والأدب والحكمة

موسوعة مجادلات ومحاورات ومصارعة أفكار تلقن أفكار تلقن الناس الحجة البالغة وتلهمهم الحكمة وفصل الخطاب .

تأليف أحمد صابر بك

يطلب من مكتبات النهضة والهلال ومصطفى الحلبي ثلاثمائة صفحة كبيرة .

ثمنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد